اعظم المفكرين في التاريخ

٢

قلنا في الجزء الماضي ان الفكر البشري بلغ اشدهُ في عصر كوبرنيكس ومن ثم اخذ يتقدم بخطوات ثابتة في كشف اسرار الطبيعة والسيطرة على عناصرها . فكان العصر الذي تلا عهد كوبرنيكس عصراً حافلاً بروّاد الفكر الشجعان الذين لم يقعدهم خوف او انتقاد عن الخوض في مختلف المباحث

من نختار مثلاً لهذا العصر — عصر الاختبار ؟ انختار ليوناردو دافنشي المصوّر الموسيقي النحات البناء المستنبط المهندس الفيلسوف العالم بالتشريح والفسيولوجيا والطبيعيات والكيميا والجيولوجيا والزوولوجيا والنبات والجغرافيا والرياضيات ؟ كلاّ ان الحدّ الذي اطلقناهُ على رجال الفكر لا يشملهُ لانهُ كان رجل فنّ اكثر منهُ مفكراً او عالماً واثرهُ الباقي في الناس هو اثرهُ الفنّي فاذا ذكرناهُ الآن نذكر صورتيهِ « الجيوكوندا » « والعشاء الاخير » لا رأيهُ في الآثار المتحجرة او دورة الدم

﴿ فرنسيس باكون ﴾ انختار جيوردانو برونو صاحب النفس الباحثة وراء الغيوم عن الوحدة الالهية غير راضية عن المذاهب والطوائف واختلاف المعتقدات ؟ كلاّ لاننا نجد في هذا العصر رجلاً اوسع فكراً وابعد اثراً من برونو الذي أحرق في سبيل الفلسفة . نجد رجلاً دعا كل الباحثين عن الحقيقة للترابط والتعاون في خدمة العلم واثبت ان الغاية من الفكر ليست المناقشة المدرسية والتكهن بالغيب بل الغاية منهُ السيطرة على الطبيعة سيطرة تمكن الانسان من القبض على ناصية الاحوال الطبيعية التي يعيش فيها . انهُ رجل بلغ من سعة نظره ان رسم خريطة لمجاهل العلم ودلّ الباحثين الى اصول العلوم التي انشأوها بعدُ ودرّبهم في كشف حقائقها وترتيب اصولها . هو الرجل الذي نفخ روح الحياة في الجمعية الملكية الانكليزية وجماعة الانسكلوبيديين الفرنسويين وعلم الناس ان المعرفة للقوة والسيطرة لا للتأمل والتخيل . هو الرجل الذي قضى على منطق ارسطوطاليس واقام الملاحظة والامتحان اساساً للفكر واتصف بكل الصفات التي يمتاز بها الفكر الحديث — هذا هو فرنسيس باكون

وحديث التقدم الفكري منذ ايام باكون الى الآن هو حديث الفلسفة الباكونية والاساليب الباكونية وانتصارها على الفلسفة والاساليب القديمة

ما اكثر الرواد في هذا الطريق في ايامي وبكارت يتصارع النظام القديم مع النظام الجديد من غير ان يتم الفوز الاكمل لاحدهما . وفي عقل ليبنز شاهد ما للتقاليد القديمة المرعية الجانب من قوة ونفوذ لانها تحوّل الرياضي المتاز الى لاهوتي متردد. وفي صوت عمانوئيل كانت نسمع صوت المعتقدات القديمة يرتفع وسط اهازيج الريبة والشك التي اثارتها المباحث الجديدة والآراء الجديدة

على ان سبنوزا وُفق توفيقاً غريباً في الجمع بين هذين المذهبين المذهب العلمي والمذهب اللاهوتي في النظر الى الطبيعة والكون . ومن هو سبنوزا ؟ رجل جعل التأمل في الله والطبيعة والحياة عملهُ ، فسار به عقلهُ المتفوّق اشواطاً بعيدة في كشف الكثير من اسرارها . النظرهُ يصنع بلوراته او يدوّن آراءهُ في ما وراء الطبيعة او يدرس الهندسة والميكانيكيات او يتشهد للفلسفة ، ترى في كل عمل من اعماله عظمة وجلالاً جعلت كل مفكر بعدهُ يتأثر بفكره السامي وشخصيته القوية . ولكننا لا نستطيع ان ننتخبهُ واحداً من العشرة الذي نحاول اختيارهم . لان اثرهُ كان محدوداً ومحصوراً في افراد قلائل ولو كانوا من قادة الفكر في العصور التي تلت عهدهُ

﴿ نيوتن ﴾ ولكن من يشك في مقام نيوتن؟ ان تلاميذ المدارس يعرفون كثيراً من القصص التي تروى عنهُ وتدل على انصرافهِ عن سفاسف الحياة للتأمل في اسرار الكون. ان قصتي التفاحة الهابطة والكلب الذي احرق لهُ كتاباً ثميناً اشهر من ان تذكر ولكن هل يعلم كثيرون ان كتابهُ « المبادئ » كان فاتحة عصر جديد تمت فيهِ سيطرة العلم على سير الفكر الحديث . وان نواميس الحركة التي كشفها اصبحت اساساً لعلم الميكانيكيات الحديث الذي بُني عليهِ كل تقدم عملي في عمراننا الحاضر وان اكتشافهُ لناموس الجاذبية حوّل الكون الى نظام دقيق نعرف ابعاد اجرامهِ واجرامها وحركاتها . قال ڤولتير « كنا نتحدث فسأل سائل اي الرجال الثلاثة اسماؤهم يفوق الباقين عظمة — الاسكندر او قيصر او تيمورلنك او نابوليون . فاجاب احد الحضور لا شك ان نيوتن اعظم الجميع فكان كلامهُ فصل الخطاب لان نيوتن يسيطر علينا بقوة العقل لا بالعنف البدني وعليهِ فنحن نحترمهُ » فيظهر مما تقدم ان معاصري نيوتن ادركوا مقامهُ الفريد بين رجال الفكر ، وقد جاء الاجلال باقتضاء مائتي عام على وفاتهِ اقوى دليل على ذلك

﴿ ڤولتير ﴾ والى ڤولتير يعود الفخر والفضل في نقل مبادئ نيوتن الميكانيكية وفلسفة هُبس الى فرنسا فكان عملهُ مبدأ عصر النهضة والنور فيها وكان هو حامل مصباحهِ

ورافع لوائه قد يدهش بعض القراء و يحنق بعضهم حينما يرون ڤولتير قد زُجّ بين اعظم المفكرين في التاريخ ويعترضون بانهُ لم يكن مبتكراً في آرائهِ وانهُ كان فوق ذلك هدّاماً اكثر منهُ بنّاء. ولكن من منا مبتكر لدى التحقيق؟ واي رأي تصورهُ الآن لم يذكر منذ القدم في صور مختلفة ان ابتكار الخطإ اسهل على الناس من ابتكار الصواب. ألم يتناول سپنوزا — وهو من اكثر المفكرين تقصياً وتعمقاً — مبادئ آرائهِ وفلسفتهِ من برونو ومايمونيدس وديكارت ؟ ولم يتخذ رامُس موضوعاً لبحثهِ حين نال لقب الدكتوراه « ان كل ما كتبهُ ارسطو طاليس باطل لا يستثنى منهُ سوى ما نقلهُ عن افلاطون » ؟ الم ينقل افلاطون قديماً وشكسبير حديثاً كثيراً من مرويّات الناس فحوّلاها بسحر خيالهما وبلاغتهما الى آيات خالدة من الفن والجمال ؟ فاذا سلمنا ان ڤولتير و باكون انارا مصباحيهما من مصابيح الغير افلا يكفيهما فخراً وعظمة انهما انارا بهما العالم . اخذ ڤولتير من غيرهِ آراءه كلها مطموسة مطمورة في زوايا النسيان لصعوبة تناولها ، فبسطها واليسها من سحر بلاغتهِ ثوباً خلاباً فاقبل عليها الناس واي اقبال

وهل كان ڤولتير هدّاماً كما يقال ؟ اوفض الاعتراف بمقامهِ وقوة فكرهِ لان آراءهُ تختلف عن آرائنا ؟ الم تخلّ عن سپنوزا لان اثرهُ كان محصوراً في نفر قليل من المفكرين مع ان بعضنا يقدس فلسفتهُ حتى يكاد يقسم بها ؟ وعليهِ فيجب ان لا نسأل هل تتفق آراء ڤولتير مع آرائنا بل هل قبلها الناس وهل كان لها اثر فعال في تكييف اراثهم في عصرهِ والعصور التالية ؟

لا ريب في ذلك ! يقال ان الملك لويس السادس عشر التفت في سجنهِ فرأى مؤلفات ڤولتير وروسو فقال « هذان الرجلان قوّضا دعائم فرنسا » . ولو وضع كلمة « الاستبداد » بدل فرنسا لكان اصاب كبد الحقيقة

على ان للملك لويس اسبغ على الفلسفة شرفاً لا تستحقهُ كلهُ . اذ لا شك ان الحالة الاقتصادية في فرنسا في العصر الذي سبق الثورة مهدت السبيل الى الثورة الفكرية التي كان ڤولتير زعيمها ورافع لوائها . لكن الالم في عضو من اعضاء الجسم لا يدفع الانسان الى معالجتهِ ان لم يشعر بهِ اولاً بما تنقلهُ الاعصاب من الاحساس بالالم الى الدماغ . وعلى ذلك فس حالة فرنسا . ان جهل العامة بفساد الحكم في ايام البوربون جعل استمرار الحالة مما لا مندوحة عنهُ الى ان يقضي على البلاد بتمزق شملها وهبوطها الى هوة سحيقة من الانحطاط والخذلان . لكن اقلام عشرات من الكتّاب انطلقت من عقالها تصوّر الشعب

فساد الحال فكان سريرها اوقع من صليل السيف لانها دلّت الشعب على مكامن الداء فانبرى فهيٌ يبحث عن الدواء . وفي هذا العمل العظيم كان ڤولتير القائد الاعلى الفعليّ تحت لوائهِ عشرات من الكتاب كلهم يعترف بقيادتهِ ويذعن الى اشارتهِ . حتى فردريك الكبير حيّاهُ بقولهِ « انهُ اكبر نابغة حملتهُ العصور »

وكما ان قادة الفكر في ذلك العصر كانوا يخضعون امام ڤولتير احتراماً كذلك تراهم في العصور التالية يعتبرونهُ إمام الحرية الفكرية ويلقبونهُ بصاحب الجلالة. فنيتشه الفيلسوف الالماني استقى كثيراً من نبعتهِ وقدّم اليهِ احد مؤلفاتهِ وانانول فرانس تتلمذ لهُ ودرس عليهِ في مؤلفاتهِ التسعة والتسعين وكيف بها اسلوبهُ وفكرهُ . و براندس كبير الجنود في كثير من معارك الحرية الفكرية وقف ايامهُ الاخيرة على وضع سيرة لهُ كاد يرفعهُ فيها الى مصاف الالهة . فاذا اغفلنا اكرام ڤولتير كنا غير جديرين بالحرية التي رفع منارها

على ان هناك وجهاً آخر للنزاع بين الايمان والشك ، بين الفلسفة القديمة والاساليب العلمية الحديثة . ذلك ان كثيراً من المعتقدات التي انهارت امام النزعة العلمية الحديثة كان لها كثير مما يشفع بها وڤولتير نفسهُ بقي موحداً مؤمناً حتى انهُ اقام في بلدتهِ كنيسة للصلاة. على ان اتباعهُ تعدّوا الحدّ الذي بلغهُ زعيمهم ولما مات كانت الفلسفة المادية قد طغت تيارها وقضت على كل فلسفة اخرى تنازعها البقاء حينئذٍ

***

في اواخر القرن السابع عشر ظهر في انكلترا الفيلسوف الانكليزي جون لوك فكان الرأي الاساسي في فلسفتهِ ان الاختبار مصدر المعرفة وان الحواس سبيل الاختبار وان العقل لا يحتوي على امر لم يصلهُ عن طريق الحواس . فكان قولهُ هذا سبيلاً الى الاستنتاج بان الاجسام المادية تؤثر في العقل عن طريق الحواس دون غيرها واننا لا نستطيع ان نعرف شيئاً الاّ اذا كان جسماً ماديًّا وعليهِ فالفلسفة المادية في لباب الحق

فرد عليهِ المطران باركلي بقولهِ ان قول لوك يثبت من نفسهِ ان لا وجود مستقل للمادة وانما هي توجد لاننا نشعر بها بحواسنا فاذا انعدمت الحواس انعدمت المادة فتقضى بردّ هذا على المادة والفلسفة المادية . ولم يلبث ان انبرى لها داڤيد هيوم فكتب رسالتهُ التي عنوانها «الطبيعة البشرية» جارى فيها باركلي في نفي وجود المادة المستقل وتعدّاهُ فاثبت بالطريقة نفسها ان لا وجود مستقلاً للعقل

﴿ كانت ﴾ تصوّر الحالة الفكرية في ذلك العصر وما اصيبت بهِ من التشويش.

استل بار كلي سيفاً طعن بهِ المادية فجاء هيوم واستل السيف نفسهُ وطعن بهِ العقل غير المادي والروح الخالدة وفي المعركتين فقد العلم كثيراً من مقامهِ وهيبتهِ . في ذلك الحين تناهت الى عانوئيل كانت الالماني ترجمة مؤلفات هيوم فقرأها ولما اتمها ناجى نفسهُ قائلاً « اتقفل عن العلم والايمان لهذا النقادة الهدامة ! ماذا يجب ان نفعل لتخليصها ؟ »

وماذا فعل ؟ وضع كتابهُ «تحليل العقل المجرد» ووضع فلسفتهُ الكمالية التي رفع فيها شأن التأمل كمصدر من مصادر المعرفة لانهُ قضى بان الاختبار لا يمكن ان يكون وحدهُ مصدر المعرفة فاصغى الناس الى صوتهِ فرحين لانهم سمعوا فيهِ صوت التقاليد والمعتقدات القديمة التي كانت مرعية الجانب لدى اباءهم واجدادهم ، ولانهم رأوا فيهِ منصرفاً عن العلم اليقيني الذي اخذ ينتشر حينئذٍ

ومن يشك اقل الشك في اثر كانت؟ انهُ انقذ العقل والنفس من قبضة المادة ودفع بالمثاليا كلها الى الاهتمام بالمباحث التي ما وراء الطبيعة فاقبل عليهِ شلر وغوته يتلقيان الحكمة والحق ونقل عنهُ بتهوفن قولهُ «ان مجيئنا الحياة هما القبة الزرقاء ترصعها الكواكب والناموس الادبي في نفس الانسان » وتابعهُ فيخت وشلنغ وهيجل وشوبنهور فوضع كل منهم نظاماً فلسفياً جديداً يقوم على نزعتهِ الكمالية. وكأن كتابهُ « تحليل العقل المجرد» كان تمهيداً لاراء شوبنهور ونيتشه وبرغسن ووليم جيمس . وحتى الآن لا يزال نظامهُ الفلسفي قائماً لان العلم الحديث في اشخاص بيرسون وماخ وبوانكاري اثبت ان «الحقيقة» و «المادة» و «الطبيعة» و «نواميسها» كلها مما يستنبطهُ العقل ولا وجود لها الا بوجودهِ فكأن اكليل النصر عقد لكانت وفلسفتهِ فغازا على المادية والالحاد

ثم جاء داروين فثارت الحرب ثانية

﴿ داروين ﴾ اننا لا نعلم ما قد يكون اثر داروين النهائي في تاريخ البشر ولكن لا ريب في انهُ فاتحة عصر جديد في التقدم الفكري . فاذا ثبت انهُ على خطأ فيما يرتأيهِ اغفلهُ الناس كما كادوا يغفلون ديموقريطس وانكساغورس . واذا ثبت انهُ على صواب تقدمت الاجيال المقبلة اليهِ بالتجلة والاعظام وجعلوا سنة ١٨٥٩ وهي السنة التي نشر فيها كتابهُ « اصل الانواع » حداً يبدأ عندهُ الفكر الحديث

وماذا فعل داروين ؟ رسم صورة للارض والحياة تختلف عن كل صورة قبلها واشار فيها اشارة دقيقة الى كل ما رآهُ من غير ان يتهجم على معتقد ما . واذا الطبيعة في هذه

الصورة معركة حامية الوطيس ، فيها الولادة مَرَض والموت حقيقة ازلية . والحياة سداها ولحمتها الانتخاب الطبيعي القائم على التنازع للبقاء وبقاء الانسب . وسطح الارض مرتع للاحياء من منظورة وغير منظورة يأكل قويها ضعيفها و يفتك داهيتها بساذجها، وصار للافعال الطبيعية على اختلافها من زمهرير وزلزال واعصار وطوفان ووباء وحريق وحرب شأن كبير في هذا الانتخاب ، تبيد بها أجيال وتبقى اجيال اخرى تعيش وتتكاثر الى ان يُقضى عليها او يحلّ محلها ما هو اصلح منها للبقاء . هذا هو النشوء وهذه هي الطبيعة وهذه هي الحقيقة وهذه هي الارض — حسب صورة دارون

جاء كوبرنيكس فاثبت ان الارض ذرة سابحة في الفضاء فقضى على المعتقد القديم القائل بانها مركز الكون وموطئ قدمي الله . وجاء دارون فاثبت ان الانسان حيوان يتنازع مع سائر الحيوانات السيطرة على الكرة الارضية فقضى ايضاً على المعتقد القديم القائل ان الانسان خُلق خلقاً مستقلاً وانهُ سيّد كل المخلوقات

تصوّر تأثير هذه الفلسفة الجديدة في العقول التي نشأت على الفلسفة الكنائية والمعتقدات الدينية . افتعجب اذاً حين ترى رجال المعتقد القديم يشيرون حرباً ضروساً على الرأي الجديد حتى بلغ العداء بين العلم والدين مبلغاً من الحدة والشدة لم يبلغهُ بعد غليليو وبرونو؟ ولكن ألا يقف المتصرون في هذا المعترك على جثث ضحاياهم يأسفون لنصرهم المبين توّاقين الى النظام القديم والمعتقد القديم الذي قوضوا اركانهُ

امامك اذن الرجال العشرة الذين انتخبناهم

كنفوشيوس — افلاطون — ارسطوطاليس — توما اكيناس — كوبرنيكس — باكون — نيوتن — فولتير — كانت — دارون . والى جانبهم انداد لم يسعنا ان ندخلهم بحثنا مع ان لهم مقاماً لا يقل عن مقام هؤلاء — ديتريطس — ابيقوروس — مرقس اورليوس — ابيلارد — غليليو — سپنوزا — ليبنتز — شوپنهور — سپنسر — ونيتشه . وقد حكم علينا ان لا نذكر احداً من المخترعين لان كثيراً من العقول اشتركت في اخراج مستنبط واحد من حيز الخيال الى حيز العمل والاتقان . واذا ذكرنا الحركات الاجتماعية الكبيرة في التاريخ وجدنا اننا ضربنا صفحاً عن كثيرين من زعماء الفكر البشري . اين الحركة النسائية وزعيماتها من ماري ولستنوكرافت الى سوزان انتوني . واين الحركة الاشتراكية من ديوجينس وزينون الى لاسال وماركس ؟ وهذا النقص لا سبيل الى تلافيهِ اذ اية فائدة تستطيع ان تستفد كنوز الفكر البشري على اختلافها ؟ آه

المرحوم الشيخ الخضري

منتطف مايو ١٩٣٧
امام الصفحة ٥٥٣